الأهرام

المصدر: الشرق الاوسط

التاريخ : ٤ مارس ٢٠٠٥

لبنان.. من القلب إلى العقل

هدف اغتيال الحريري إلصاق التهمة بسورية
بما قد يصل إلى وضع يصبح فيه تغيير النظام
أحد أهداف تلك الضغوط

ما زال «السونامي» الذي ترتب على اغتيال رفيق الحريري يضرب شواطئ لبنان بعنف وقسوة، ويتعداها إلى سورية، بل إلى المنطقة كلها، بما يمثله من احتمالات انفجارات يجب على كل الأمة العربية أن تتكاتف لمنع وقوعها، وأن تتعاون لإيجاد حل يتفق مع العقل والمنطق ومع المصالح المشتركة. وقد أدت الموجة حتى الآن إلى خروج الآلاف من اللبنانيين مجتمعين، رغم اختلاف طوائفهم، مجمعين على أمور يمكن تلخيصها في إعلاء كلمة الشعب اللبناني، وتأكيد استقلال قراره من سيطرة البعيد أو القريب، الصديق أو الشقيق أو غيرهما. وأدت بالتالي إلى سقوط حكومة تحملت ما قد لا يكون كله وزرها، وانحنت أمام العاصفة التي نعتتها - في خضم الحزن والغضب - بالضعف والتخاذل والإهمال، بل التواطؤ بالتنفيذ أو بالمشاركة في التدبير، وهي اتهامات قد يكون في بعضها مبالغة، وفي بعضها الآخر ظلم، ولكن من وجهوها وجدوا لتوجيهها حججا ومبررات بعضها يرجع الى فرط الفجيعة، وبعضها من فعل الوقيعة، والبعض الآخر نتيجة بطء الحكومة في التحرك وإظهار الهمة الواجبة في معاقبة المقصرين فورا، والشروع العاجل في البحث عن المجرمين لمعاقبتهم ، ليس فقط وفاء للشهيد العظيم وما يمثله، بل إنقاذا لشعب لبنان من الأنواء والفتن، والمصائب والمحن.

ومن خلال متابعة دقيقة لم تنقطع، والقلب ينفطر خشية على لبنان، والعقل يكاد ينفجر بحثا عن خيوط قد تؤدي إلى فهم صحيح وتفسير مقنع يجنبنا مسالك الشطط، ومزالق اللغط، فإني أود أن أبدي الملاحظات التالية.

1- ان اغتيال الحريري كان له أثران فوريان، أولهما ظهور احتقان كان موجودا، ولكنه كامن بعض الشيء في العلاقة بين الشعب اللبناني وسورية والأشخاص المحسوبين عليها، ولذلك فقط كان رد الفعل الشعبي هو توجيه الاتهام فورا إلى سورية بأنها مسؤولة عن الجريمة، والى الحكومة اللبنانية بأنها تقاعست في إظهار حرصها على تبين الحقيقة.

2- ان هذا الاتهام الذي تم التعبير عنه بألفاظ عنيفة غير معتادة في تناول العلاقة مع سورية، كان نتاج رغبات مكبوتة اكثر منه نتاج تفكير منطقي بحت، فبعض المنطق قد يقول ان سورية المتعرضة لضغوط شديدة من الغرب بالنسبة للبنان وفلسطين والعراق، ولاتهامات بدعم ما تسميه الولايات المتحدة الإرهاب، والتي حاولت في الفترة الأخيرة ان تثبت شيئا من حسن النوايا المقترن باستعداد للالتقاء مع من يهاجمونها في نصف الطريق، وليس من مصلحتها أن تقدم على مثل هذه الجريمة التي ستوجه الاتهامات فورا بشأنها إليها. ويضيف هذا المنطق انه من الواضح أن هذه الجريمة قد اقترفت بهدف إلصاق التهمة بسورية، من جانب عناصر حريصة على ان تضاعف الضغوط إليها، بما قد يصل إلى وضع يصبح فيه تغيير النظام أحد أهداف تلك الضغوط. وقد أشار فاروق الشرع نائب رئيس وزراء ووزير خارجية سورية لذلك، في تصريح أخير له.

3- ولكن البعض يردون على هذا المنطق بإثارة احتمالين، أولهما ان تكون بعض العناصر في سورية قد تصرفت دون أوامر ولأهداف بها. ويربطون ذلك بخلافات نتيجة لنزع ملف لبنان من عناصر المخابرات السورية، وتكليف وزارة الخارجية به، ويستشهدون بالتغييرات التي حدثت على قمة جهاز المخابرات العسكرية السورية في أعقاب الحادث، رغم ان تلك التغييرات فيما يبدو مرتبطة ببلوغ سن المعاش.

أما الاحتمال الثاني الذي يردده بعض من يدعون معرفة أسلوب دمشق في التعامل مع الأخطار، وهو دفع الأمور إلى تصعيد، فأزمة، تتراجع بعدها جميع الإطراف خطوات إلى الوراء لاعادة حساباتها، فتمر لحظة الخطر أو تتأجل. وهو احتمال يستند إلى منطق أجد من الصعب قبوله، لأنه مغامرة غير محسوبة، ولا أتصور ان أحدا يجد ان وقتها مناسبا بينما قطار الولايات المتحدة - وحلفائها - مندفع من دون أن يكون لديه استعداد لاستخدام الفرامل.

كما أن رد فعل الشعب اللبناني القوي إلى درجة إسقاط الحكومة، هو رد فعل عفوي، لا اعتقد ان الجريمة ارتكبت لخلقه، ولكنها أظهرته إلى السطح ليجمع بين

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

أحمد ماهر*

جميع الطوائف في مواجهة سلطة ضعيفة. وقد بدا ان الحريري - الذي أريد تحجيمه بعد موقفه من معركة التجديد التي لم يخضها صراحة، وإن كان لم يخف موقفه منها، ازداد حجمه وتأثيره بعد اغتياله، وأصبح الرمز الذي التفت حوله المعارضة.

فكان سلاحها الماضي ضد أركان الحكم، كما أصبح الراية اللبنانية التي حملها جميع اللبنانيين فوق رؤوسهم، وعلقوا ألوانها في أعناقهم، وكانت الصرخة القوية التي تنادي بالاستقلال والانسحاب السوري. والغريب في الأمر ان الحريري لم يكن عدوا لسورية، بل انه تماشى معها أحيانا، ولكنه كان يؤمن بأن العلاقة «المميزة بين البلدين التي تستمد قوتها من جذور القربى والتاريخ والمصالح الأخوية المشتركة»، وفق ما ورد في وثيقة الوفاق الوطني، لا تعني أضعاف الاستقلال اللبناني، بل تعني وفقا لما جاء بالوثيقة أيضا «التنسيق والتعاون.. بما يحقق مصلحة البلدين الشقيقين في إطار سيادة واستقلال كل منهما»، وان ذلك يقتضي وفقا للوثيقة أيضا - بألا يسمح لبنان بأن يكون مقرا أو مستقرا لأية قوة أو دولة أو تنظيم، يستهدف المساس بأمنه أو أمن سورية، وأن سورية الحريصة على أمن لبنان واستقلاله ووحدته ووفاق أبنائه، لا تسمح بأي عمل يهدد أمنه واستقلاله وسيادته».

4. إن المطلوب في الوقت الحالي يتلخص في ثلاثة أمور أساسية: أولها الحفاظ على وحدة لبنان وشعبه، لأن هذا شرط سلامته من المؤامرات ضده ، سواء باغتيال الحريري وباستغلال استشهاده لتعميق الفجوة، مما يعود بالضرر على جميع الفرقاء على اختلاف مشاربهم، والثاني هو الحفاظ على العلاقة مع سورية على أسس صحية سليمة. وفي هذا الصدد فإنه - باستثناء بعض الهتافات المبالغ فيها التي سمعناها تتردد والتي تعكس في تقديري مدى الفجيعة في الفقيد، أكثر مما تعكس مشاعر بالغة السلبية ومبالغا فيها تجاه سورية - أقول انه مما يلفت النظر، ان الغالبية العظمى من رجال السياسة الذين علت أصواتهم، كانوا يصرون على ان العلاقة مع سورية علاقة مهمة وأساسية، وان المطلوب تصحيحها لا قطعها، والمطلوب تخليصها من تشوهاتها، وليس استغلال الأخطاء التي شابتها لدفنها. وقد عبرت وثيقة الوفاق الوطني عن ذلك بوضوح، وعكسته اتفاقية الطائف التي كانت المرجعية التي تستند اليها غالبا تصريحات الجانبين. والأمر الأساسي الثالث هو الحفاظ على سورية نفسها، التي تتعرض لضغوط شديدة زادت حدتها وتهديداتها بعد الجريمة المروعة. وأعتقد أن القادة السوريين يدركون هذه الحقيقة ويستوعبونها، ولكني شعرت ببعض الحيرة في أسلوب تناولها وهو أمر يجب تجاوزه.

5. وعلى ضوء ما سبق، فإنه يجب الترحيب بما نسب إلى الرئيس بشار الأسد في مجلة «تايم» من أن انسحاب القوات السورية سوف يتم خلال اشهر، ومن المهم ان يعلم ذلك ويسجل في وثيقة رسمية، تحدد موعدا ثابتا للتنفيذ، على ان يقترن ذلك بما يلي:

× تشكيل حكومة لبنانية تتفق عليها جميع الأطراف للأشراف على الانتخابات النيابية.

× إعلان عربي بضمان سلامة لبنان، ورفض أي تدخل في شؤونه الداخلية.

× إعلان دولي بنفس المعنى والمضمون.

× حوار لبناني سوري - برعاية جامعة الدول العربية، اذا أراد الطرفان، لتحديد وتجديد الأسس التي تقوم عليها العلاقات في إطار ما نصت عليه وثيقة الوفاق.

وبعد، فهذه مجرد اجتهادات من مواطن عربي، ينفطر قلبه عندما يرى عوامل الفرقة المصطنعة، تزاحم عوامل التوحد الطبيعية، ولعل كل المخلصين لهذه الأمة، الذين يريدون لها الخير في مجموعها وفي مكوناتها، يشحذون الفكر في جلسات «عصف فكري»، تستهدف الخروج من هذا المأزق، الذي أراده لنا المجرمون الذين قتلوا الحريري، وحاولوا قتل ما يمثله من عناصر التوازن والاتزان والحرص على المصلحة الوطنية والقومية، ومحاولة خلق وتعزيز الصداقات، وليس تعميق العداء، الذي يستغله من لا يريدون الخير للعرب على تنوع مشاربهم.

* وزير خارجية مصر السابق

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية